الرسامون والسيرة الذاتية

سعد القصاب

لا سير ذاتية للرسامين، ولكن هنالك سير كتبها شعراء، روائيون، فلاسفة، علماء، سياسيون، وحتى جنرالات حرب. الرسامون وحدهم لا يرغبون في كتابة سيرتهم الذاتية.

لا أجد الأمر يتعلق بدرايتهم بحرفة الكتابة، معرفة صناعتها، إتقانهم للتأليف. إن العديد من الرسامين هم كتاب أيضا. وقد خبر بعضهم عديد أنواع الكتابة. في المذكرات، كان هنالك " ديلاكروا " وكذلك " جواد سليم ". في الرسائل " فان كوخ ". كما يوجد فيهم منظرون كبار، " كاندنسكي "، " بول كليه "، " فازاريلي "، " محمود صبري ". في النقد الرسام الكبير " شاكر حسن ال السعيد " . هؤلاء وغيرهم، كتبوا عن أشياء كثيرة، عن الإنسان والعالم وتجربة الحياة، وحينما يكون الإبداع تكملة لها، والكاشف عن بهائها الذي لا ينضب. إن كتابتهم لطالما حفلت بما ينطوي عليه الخطاب الجمالي من معنى وتجليات.

ولكن يبقى الرسام غير الكاتب. إن الفرق بينهما، يوازي الفرق بين الفرشاة والقلم، الألوان والحبر، القماشة والورقة.

كثيرا ما يكون الرسام غير معني بالانحناء على ورقة بيضاء، يراقب الحياة، يتأمل أفكاره عنها كي يعترف. انه لا يراقب بل ينظر فقط. إن الرسام لا يدعونا سوى إلى النظر بصورة جيدة، انه لا يعلم فن التفكير بل فن النظر.

ينظر بقوة من تحولات الطبيعة إثناء فصولها إلى أحلامه الفردية الأشد غرابة. حتى وان تسنت له ورقة بيضاء، نراه بعد حين يتخلى عن الكلمات ليرسم أشكالا، فهو منهمك بشكل دائم في حرفته الجميلة، تمثل ما ينظر إليه، لأنه يعمل ما قبل اللغة، مع الصورة.

لا تلبي الكلمات مطالبه، لا يؤثرها، لأنها لا تفترض ذلك الهدوء الذي يمكن الشعور به في تنوعات اللون الأزرق، وهي أيضا ليست بتلك الحسية لكي تمنح الدفء الذي يحققه القليل من اللون الأحمر. لا تتبنى تلك الدوافع الهائئة التي تستأثر بها ضربات فرشاة سريعة على سطح اللوحة.

إن الرسام غالبا ما يشتبك مع ما ينجز، ولوحته تتشكل من خلال هذا الاشتباك، حيث المبادلة بين الرائي والمرئي، الشاهد والمشهد، بين الماثل والمماثلة. انه قائم في هذا العالم،لا لكي يصف هذه العلاقة الجدلية بل لتحقيقها.

الرسام ليس كالكاتب، كائن مغرم بالمجاز، بالتورية، يرثي مكائد البشر ويشيد بأشواق تبحث عن ماض، وحنين وعواطف شاردة. لا يبحث عن فردوس مفقود بل يسعى لاحتلال ارض موعودة. انه صانع لما هو مرئي، محسوس. فهو سليل حرفة، كادح دنيوي.ورسمه " أمر يتعلق بإمساك القوة، الاستيلاء على شيء من الطبيعة –بيكاسو " . اجزم أن أنامله تختلف قليلا.

إن السيرة الذاتية مهمة بديلة للاعتراف. تكون خلالها الذات في موقع تصف فيه نفسها وتكون موضوعة بحثها الأساسية. أشبه ما تكون بمأساة حياة لآخر تتحدث بضمير المتكلم (أنا)، وتحتشد باعتراف وخيبات وحميمية. فيما الرسام ليس معنيا بهذه الوفرة من الإفصاح عن نفسه، لا يؤمن بحياة مستعارة من الماضي. انه يعيش دائما أفكارا مستنفذة جراء يده وعينه. فهو كائن ينظر مرتين في الحاضر. مرة،حينما يهم بالبحث عن شيء يرسمه، وثانية عند النظر طويلا وبصمت إلى ما صنعت يداه. ذلك جوهر حضوره الهنيء ورغبته الوحيدة. إذ يسعى دائما إلى رسم لوحة أخرى، بمثابة حقيقة جميلة، جديدة ومختلفة. إن لوحاته تقول بدلا عنه. يكتب " فان كوخ " في رسالة إلى أخيه " في الرسم يوجد شيء غير متناه، لا أستطيع أن اشرح كما ينبغي ما هو بالذات ولكن هذه الروعة تثير المزاج في الألوان، تمتزج إيقاعات وتبيانات خفية تؤثر في حالها والتي عند التعبير عنها لا تجد لها لفظا ".

لا يتوق الرسام إلى الكتابة، لان اللغة ترغب في أن تكون وسيلة خلاص. فيما يتطلب العمل الإبداعي روحا باسلة ترغب للحياة بقدر لا ينضب من البقاء.

تبدأ الكتابة غالبا من مغادرة الحاضر. وهي تولد من ماض قد تم اكتفاؤه بالوجود. من ذكرى عنه مارست انشغالات سابقة. في السيرة الذاتية هنالك رواية سرد ذات في طريقها إلى الرحيل. يقول موريس بلانشو " أن تكتب ذاتك يعني انك تتوقف عن الوجود ". تجعلها بعيدة عنك، تفارقها قليلا. فيما الرسامون لا يستطيعون ألا الوجود بشدة داخل ذواتهم. بل وحثها على المضي إلى مغزى آخر في التجربة. لذا هم لا يحتفظون دائما بذاكرة معافاة، لأنها تضررت بفعل صلتهم الحميمة مع اليومي، وانشغالهم في مراودة وجودهم بين أخاديد الواقع.

من هنا، لا يرغب الرسام في أن يتخلى عن دور المكتشف من اجل دور باحث. يعقد مقارنات، يستعير وثائق، يعاين بديهيات، يتجاوز تردده في قبول يقينه باحتمائه خلف قول الآخرين. هو لا يجيد دورا كهذا، إلا دوره الشخصي في أن يكون صانعا قديرا لعوالم خاصة لا تجول فيها سوى تلك السكينة المبدعة، المدعو بمفرده للعيش فيها، وهي حرفته منذ فجر التاريخ.

يقول اندريه موروا "يعيش البشر في السيرة إلى المدى الذي رآهم فيه الآخرون ودونوا ملاحظات عن أفعالهم ". السيرة لا تؤكد غير ذلك. إلا أن الرسام ليس قصديا، وهو يعلم بالتجربة، انه عند محاولته إثبات شيء ما، سوف يخفق، الرسامون اشد الناس جزعا من الإخفاق، أنهم يؤمنون بعظمة فنهم أكثر من إيمانهم بعظمتهم.

ولكن ماهي تجربة الرسام ؟. إنها غريزة خفية في الاكتشاف، حدس يتغذى على المصادفة، ومجهول تمنحه التلقائية سمة للمرور، وهو يعمل أيضا وفق مادة خفية، لايمكن لنا أن نستدل عليها بالمعرفة، نطلق عليه تسمية " التعبير "، ذلك الحس المطلق الذي رافق الإنسان منذ البدء. يقول الفنان التعبيري اميل نولده " الغريزة أعظم عشر مرات من المعرفة ".

من اعمال بيكاسو

في السيرة الذاتية، هناك تعميم لحياة. التعقيد ذاته الذي يملكه جميع البشر. تعرّفنا عن بعض حقائق اخرى عن الإنسان. تكشف بسردها عما كان غير مرئي فيه. بينما الرسام كائن ذاتي كأسلوبه. يخضع لضراوة التفرد، وإبقاء وجوده غامضا. لطالما اخفت اللوحات رساميها. مسعى غير مرغوب فيه لأن يكشف عن حياته، ويفصح عن مراجعه، لأنها سكنت مادته الجمالية وهو المعني تماما في إخفائها.

إن ضرورة الرسام تكمن في تكريس اختلافه. وهو الأمر الذي لا يتحقق عند معرفة التقاء منجزه مع مؤثرات ومشابهات تدل عليه، بل يكون بفعل انفصاله عنها، في أن تحتفظ لوحاته بتلك الحقيقة الوحيدة المتعلقة بوجودها.

عدم كتابة الرسامين سيرهم الذاتية، شيء لا يتعلق بكونهم تجاهلوا حياتهم الخاصة، أو أن أحداثها لا تحتوي بما يكفي من الاهتمام، أو حتى في اعتبارهم كائنات دون طفولة، و حياة عاطفية شيقة، فالأمر لا يتعلق بالكلام بل بالصمت. فالرسام إذ " يعبر بالكلمات عما ينبغي عليه أن يقول، فانه لن يرغب عندئذ في أن يبدع – غادمير ". فكل اعتراف لابد من أن ينطوي على قدر من الشك. وكيف للرسام أن يرتاب بفطنة مشاهداته المتواصلة للعالم.

أن لوحات الرسامين تجارب حقيقية أعدت للمشاهدة والتلقي. محاولة عيش سيرة الرسام ذاته وهو يحياها داخل اللوحة. فرصة تتيح للجمال بالظهور. وتمارس حسا يدل على وجود مضاعف. وجود لا يسمى تماما، ولكنه يشير إلى دهشة تختبئ في ذاتها، ولا يمكن لها أن تتحول إلى ذكرى.

الرسامون كائنات لا ترغب في أن نقرأ عن حياتها، بل نشاهدها من خلال اللوحات.إن سيرة الرسام تقيم داخل لوحاته.

حوار مع د.سلامة كيلة:

الانتماء للماركسية عندنا تم بشكل عفوي وليس وعيا فكريا

مازن لطيف علي

يرى المفكر سلامة كيلة ان الوضع مؤات اليوم لان يبدأ اليسار الماركسي دورا جديدا يجعله قوة حقيقية قي السنوات العشر القادمة وان الفرصة كبيرة .ربما تكون الوحيدة .حيث ليس من قوة جادة في مواجهة الراسمالية المتوحشة .وكل القوى التي تعبر عن الفئات الوسطى عادة ما تقبل المساومة في النهاية .او تفشل بسرعة كما لاحظنا في ما سمي حركات التحرر الوطني .لان برنامجها لايخرج عن ان يكون رأسماليا رغم تسميته بالاشتراكي.وبالتالي فهي تحاول تحقيق تطور ما على الضد من رغبة الرأسمالية ولكنها تحقق مصالحها الخاصة قبل كل شيء لتعود الى التكيف مع الرأسمالية المسيطرة.. كتب المفكر سلامة كيلة العديد من الكتب وهو من النشطين من اجل العمل الماركسي العربي. اصدر كيلة .الامبريالية ونهب العالم .قوضى الافكار .المادية والمثالية في الماركسية .اطروحات من اجل ماركسية مناضلة وغيرها من الكتب، وقد كان لنا معه هذا الحوار:

د.سلامة كيلة:

❖)هل حققت الماركسية مشروعها في اعادة قراءة متباياناتها الفكرية والذي انطلق مع اعمال التوسير ومدرسة فرانكفورت..اين نصيب الماركسية من هذه القراءة؟

-المشروع انطلق قبل ذلك، وربما لم يتوقف منذ ماركس، حيث تابع إنجلز ثم لينين. وبالتالي مع انطونيو غرامشي وجورج لوكاش ومع مدرسة فرانكفورت منذ ثلاثينيات القرن الماضي، وربما ساهم مفكرون آخرون في ذلك، وماوتسي تونغ واحد من هؤلاء. لكن طغيان المدرسة السوفييتية كان يهمش كل هذا النشاط الثري، ويشكك في شرعية فعل هؤلاء، الأمر الذي جعل فعلهم محاصراً، وأفكارهم موضوعة في خانة "المرتدين" رغم ان محاولاتهم كانت جادة وبعضها عميق. خصوصاً هنا غرامشي ولوكاش وماو، ومفكرون اقتصاديون كثر مثل بول باران وبول سويزي وهاري ماكدوف وسمير امين ومدرسة التبعية في أميركا اللاتينية. وربما نجح هؤلاء الاقتصاديون في تطوير مفاهيم الماركسية في تحليلها للعالم وللنمط الرأسمالي، وبالتالي إضافة تصورات جديدة حول طبيعة الصراع العالمي. لكن في المجال النظري الماركسي اظن انه لم يضف كثيراً بعدما قدم كل من غرامشي ولوكاش وماو. ربما مدرسة فرانكفورت في سنواتها الاولى، حيث ركزت على الجدل المادي، وبالتالي على المستوى الفلسفي في الماركسية.

أما التوسير فقد اغرق الماركسية في إشكالية كبيرة، حينما حاول تحويلها إلى "علم" بمعنى العلوم الطبيعية. وهو الأمر الذي جعله يفصم ماركس إلى ماركس الشاب (وبالتالي الأيديولوجي) وماركس الناضج (وبالتالي العالم). وقامت هذه العملية على شطب كل ما هو فلسفي في الماركسية، وبالتالي شطب أس الماركسية الذي هو منهجيتها، أي الجدل المادي الذي يصنف في مجال الفلسفة. وشن هجوم على هذه المنهجية كونها من بقايا الهيغلية في الماركسية (تماماً كما كان برنشتاين يعتبرها). وهو هنا حوّل الماركسية إلى وضعية تتخذ طابعاً إقتصادياً لأن ماركس العالم هو ماركس الاقتصادي كما تبلور في رأس المال. ويبدو ان التوسير اكتشف خطل تصوره متأخراً حيث يشير في كتاباته الأخيرة الى انه اكتشف قيمة الفلسفة في الماركسية بعد قراءته كتاب جاك بيديت "ما العمل برأس المال". ليكتشف أن ماركس لم يتخلص من هيغل حتى في كتابه الرأسمال. رغم ان ماركس اشار بوضوح إلى ذلك في مقدمة كتابه "الرأسمال". وأكد على أنه أخذ بجدل هيغل بعد ازالة القشرة الصوفية عنه.

وهنا تبرز الاشكالية الأولى التي واجهت الماركسية، حيث كان الميل الدائب لتحويلها إلى "علم إقتصاد"، رغم أنها أوسع من ذلك، ويمكن القول أنها علم المجتمع (وليس علم الاجتماع الذي هو جزء منها)، فهي تنطلق من الوجود البشري بكليته (وربما هنا تكمن أهمية لوكاش الذي التقط هذه المسألة). ولكنها بدأت في المستوى الفلسفي، حيث كان تبلور منهجيتها، أي الجدل المادي (وهذا التبلور يظهر واضحاً منذ الكتابات الاولى لماركس وانجلز، ويبدو ناضجاً في الرأسمال)، إستناداً إلى جدل هيغل، لكن بعد ايقافه على قدمية، أي بعد الانطلاق من أن الواقع هو الاساس وليس الفكر كما كان لدى هيغل. وعلى ضوئه بلور ماركس رؤيته للرأسمالية وتوصل إلى قوانين منها فائض القيمة، ونقل الاشتراكية من الطوبى إلى العلم كما اشار انجلز، وبحث في صراع الطبقات، وتوصل إلى الفهم المادي للتاريخ..... الخ.

هذا المستوى كان مجال تهميش وأحياناً رفض من قبل ماركسيين منذ بيرنشتاين. وكان مجال تجاهل من قبل آخرين. ومجال تحوير كما فعل بليخانوف ثم ستالين حينما شطبا قانون نفي النفي من الجدل المادي فحولاه إلى منطق تطوري كما لدى الأول ومنطق صوري كما لدى الثاني. وإذا كان غرامشي ولوكاش وماو دافعا عن الجدل المادي معتبرين انه جوهر الماركسي (كما فعل لينين قبل ذلك)، فإن التيار الاساسي، خصوصاً من سيادة الماركسية السوفييتية، كان يرفضه أو يحوره أو يتجاهله. الأمر الذي عزز الميول الوضعية والاقتصادية في الماركسية، و حولها أحيانا أخرى إلى "أصولية". ولاشك في أن الصراع في إطار الماركسية لتأكيد جوهرية الجدل المادي مازال قائماً، مع هيمنة الاتجاهات التي تتجاهله أو ترفضه، رغم أن المساهمين الكبار سواء في الانتاج النظري أو في الفعل السياسي مثل لينين وماو وغرامشي ولوكاش، كانوا يؤكدون على جوهرية الجدل المادي، بينما لم يفعل الآخرون سوى التشويش. وهنا المسألة تحتاج إلى جهد كبير لم يبدأ بعد، أو ربما مازال في بداياته.

ولأن هذه المسألة ظلت مهمشة لم تجر قراءة تاريخ الماركسية بشكل صحيح، حيث أن هذه القراءة يجب أن تستند إلى المنهجية الماركسية ذاتها لكي توصل إلى استنتاج ما هو حي وما هو ميت في التراث الماركسي، حيث أن كثيراً من المفاهيم والتصورات التي راجت على انها ماركسية تحتاج إلى نقد والى فحص للتأكد من صحتها أو تجاوزها وبلورة مفاهيم وتصورات جديدة. فمثلاً أنماط الانتاج كما تكررت منذ ماركس، يجب أن تخضع إلى النقد. فلم يتبلور إلى الآن المعنى النظري لنمط الانتاج. كما ان التشخيص المحدد لتلك الانماط يحتاج إلى نقد كذلك. وأقصد هنا ما سمي المراحل الخمس (مشاع، رق، إقطاع، رأسمالية، إشتراكية). فهي مؤسسة على التاريخ الاوروبي وحده دون التاريخ العالمي وهذه نقيصة في الماركسية التي تبدأ من العام ومن علاقة العام بالخاص. وإذا كان ماركس يحاول أن يطبق تصوره على الواقع فقد كانت هناك اشكالات لا تسمح له بفهم عميق لكل هذا التاريخ. يتعلق الأمر بنقص المعلومات، وبالنظرة المتحيزة للمستشرقين حينئذ. لكنها محاولة اولى للبحث في التاريخ على ضوء الفكرة الجديدة والصحيحة المتعلقة بأنماط الانتاج. لكن تطور الفكر وتبلور المنهجية الماركسية، وسهولة الحصول على المعلومات، تجعل البحث افضل، الأمر الذي يسمح بالوصول إلى تصورات أدق. ولقد أدى انهيار الاشتراكية إلى نشوء تحد كبير يفرض على الماركسية مواجهته عبر الاجابة عن الاسباب التي قادت إلى ذلك، وبالتالي كيف يمكن لها أن تبلور رؤية متماسكة عن الاشتراكية مستفيدة من التجربة ذاتها، من أخطائها كما من ميزاتها.

ولاشك في أن استمرار الوضع كما هو دون دراسة تاريخ الماركسية بالاستناد إلى منهجيتها، يسهم في استمرار التشوش الفكري و السياسي. وفي الضياع بين وضعية واقتصادية من جهة، ومثالية نصية من جهة أخرى.

❖ بماذا تفسر عودة نشاط الحركات اليسارية فى اوربا الشرقية.بينما نلاحظ خمولها فى الوطن العربي.

– هناك عودة محدودة للحركات اليسارية في بلدان أوروبا الشرقية، رغم أنها واعدة. لكن العودة الأهم هي للحركات الاشتراكية في بلدان أميركا اللاتينية، حيث تسلمت السلطة عبر الانتخابات الديمقراطية في عدد مهم من البلدان، وهي ظاهرة تتوسع هناك.

أما في الوطن العربي فإن الوضع صعب. حيث أن الحركة الماركسية مازالت هامشية. فالحركة الشيوعية القديمة مازالت تكرر أخطاءها في الغالب. وهي لم تقدم شيئاً ذو قيمة لا على المستوى الفكري، ولا على مستوى نقد التجربة السابقة. والوعي لدى قادتها لم يتجاوز ما كان عليه في السابق وفق ما أشرت في السؤال السابق. ولقد باتت ضعيفة وممزقة، وكثير من أعضائها مالوا نحو الليبرالية والتكيف مع الوضع الدولي الراهن المتسم بالسيطرة الامبريالية

بمعنى أن الماركسية في الوطن العربي مازالت تحمل تراث الحركة الشيوعية القديمة، وخصوصاً ذاك التراث السلبي الذي جعلها ترفض التغيير الثوري وتقبل اللحاق بطبقة عاجزة، وتتخذ مواقف ضارة من مسائل أساسية، مثل الوحدة العربية وقضية فلسطين. وبالتالي ما لم تتبلور رؤى جادة وواضحة من مشكلات الواقع العربي، فلن يكون ممكنا لها أن تنهض من جديد. آمل أن يحدث ذلك، لأنه المسار الوحيد الذي يخرج الوضع العربي من مأزقه الراهن ومن مشكلاته العويصة. وأرى أن الظرف الموضوعي بات يسمح بتحقيق ذلك، حيث وضع الطبقات الشعبية مزري، وهي تعيش وضعاً مأساوياً، وباتت تحاول خوض معركتها الطبقية. وربما يكون الوضع مهيأ لحدوث إنفجار إجتماعي شامل في العديد من البلدان العربية.

هذا الوضع يهيئ لأن يلعب اليسار الماركسي دوراً مهماً، وربما يهيئ لأن تأخذ القوى الماركسية المختلفة المسائل على محمل الجد، وتفكر في العمل المشترك على طريق تأسيس حزب جديد فاعل، ينخرط في نضالات الطبقات الشعبية. ويقود النضال ضد المشروع الامبريالي الصهيوني.

أعتقد بأن الوضع مؤات اليوم لأن يبدأ اليسار الماركسي دوراً جديداً يجعله قوة حقيقية في السنوات العشر القادمة.

❖ كيف تعلل قوة الحركة الاصولية على حساب الحركات اليسارية؟

– أشرت إلى وضع الحركة الشيوعية القديمة، وألمحت إلى رؤيتها وتكتيكاتها الخاطئة. وبالتالي إلتحاق العديد من أحزابها بالنظم القومية ودفاعها عنها، إنطلاقاً من أنها تحقق الاشتراكية. وكان ذلك يعني أن فشل تلك النظم هو فشل للأحزاب الشيوعية كذلك. وهذا ما كان يشكك في أفكارها، وبالتالي يلغي دورها كقوة فاعلة تمثل بديلاً ممكناً. وإذا كانت النظم القومية قد أحدثت تغيرات عميقة خلخلت البنى الطبقية التي كانت سائدة قبلئذ دون أن تتبلور الطبقات إلا بعد عقود. وبالتالي همشت بذلك كل الأحزاب الأخرى، وأفقدتها جزءاً مهماً من قاعدتها. فإن القمع الذي مارسته هذه النظم وطابع السيطرة الشمولية التي فرضتها على المجتمع، أدى إلى تدمير العمل السياسي، وإبعاد الأجيال الجديدة عن النشاط السياسي، ونشر ثقافة سطحية تافهة. وبالتالي إفقاد المجتمع الوعي السياسي وتفريغه من الأحزاب اليسارية خصوصاً.

لهذا حالما بدأت تتبلور الطبقات من جديد وبدأت الأزمة الاجتماعية تطحنها، لم تجد سوى وعيها التقليدي الموروث معيناً للتعبير عن إعتراضها ورفضها. ولقد إستغلت هذه الحالة من قبل القوى الأصولية التي دعمتها النظم التي إنقلبت على النظم القومية، أو أسهمت في تأسيسها. خصوصاً أن تلك القوى بدت وكأنها تناهض النظم أولاً، ثم تناهض الامبريالية ثانياً. في الوقت الذي كانت فيه الأحزاب الشيوعية إما داعمة للنظم تلك أو تميل للتفاهم مع الامبريالية منذ إنهيار النظم الاشتراكية. وكان كثير من أعضائها قد أصبح يجاهر بموقفه الليبرالي. ولقد لعب إنهيار النظم الاشتراكية دوراً في ضياع الشيوعيين، وأثر على مصداقية الفكرة الاشتراكية، وبالتالي أسهم في ضعف الحركة الماركسية وإرتباكها، وتشتت أفكارها اكثر مما كان من قبل. ولم يجر تجاوز ذلك إلا منذ توضح المشروع الامبريالي كمشروع إستعمار وهيمنة ونهب وتدمير وقتل. أي منذ بداية الألفية الثالثة.

لقد عبرت الحركة الأصولية عن حركة تمرد الفئات المهمشة، ورفضها النظم القائمة. وهذا ما كان يحولها إلى قوة، لأن التحولات الاقتصادية أدت إلى إتساع الفئات المهمشة والعاطلين عن العمل. وهذا ما أعطاها قوة جعلتها تطرح مشروع تأسيس الدولة الإسلامية، وجعل بعضها يعيد الصراعات الطائفية القديمة ويعمل على أساسها. خصوصاً بعدما بدت وكأنها تواجه الامبريالية الأميركية منذ أحداث الحادي عشر من أيلول.

إذن، يمكن القول ان أفكار اليسار كانت تتلاشى حينما بدا أن الأصولية باتت تخوض معارك اليسار. ولهذا أصبحت قوة على حساب اليسار. رغم أنها عاجزة عن تحقيق ذلك لأن جوهر برنامجها ليبرالي بالأساس (يقوم على الحرية المطلقة للتجارة)، وأفكارها مفتتة، مشرذمة، وصراعها غير مبني على أسس. وهي تحيي الصراعات القديمة كما نلاحظ ما يجري في العراق من عودة للصراعات الطائفية والدينية.

❖هل هناك فرصة مستقبلية للماركسية للوقوف بوجه الرأسمالية.

– الفرصة كبيرة، وربما تكون الوحيدة. حيث ليس من قوى جادة في مواجهة الرأسمالية المتوحشة، وكل القوى التي تعبر عن الفئات الوسطى عادة ما تقبل المساومة في النهاية، أو تفشل بسرعة كما لاحظنا في ما سمي حركات التحرر الوطني، لأن برنامجها لا يخرج عن أن يكون رأسمالياً رغم تسميته بالاشتراكي. وبالتالي فهي تحاول تحقيق تطور ما على الضد من رغبة الرأسمالية، لكنها تحقق مصالحها الخاصة قبل كل شيء، لتعود إلى التكيف مع الرأسمالية المسيطرة. هذه هي خلاصة تجربة حركات التحرر والأحزاب القومية خلاصة السنوات الخمسين المنصرمة.

الماركسية هي المعبر الحقيقي عن الصراع ضد الرأسمالية منذ أن تبلورت كنمط عالمي، أي منذ بداية القرن العشرين. ولقد لعبت دورها الثوري التغييري طيلة عقود القرن العشرين. وأدى ذلك الى ان تنتصر الاشتراكية في مناطق واسعة من العالم. ولقد إنتهت الموجة الأولى بإنهيار المنظومة الاشتراكية وتحول الصين نحو الرأسمالية. وها أن الظروف تهيئ لبدء الموجة الثانية التي يبدو أنها بدأت في أميركا اللاتينية. لكن ذلك يفرض إعادة بناء الرؤية الماركسية على ضوء الواقع الراهن، كما على ضوء الإفادة من التجارب السابقة. وهو بحث يطول الماركسية أولاً، حيث يجب أن يعاد بناؤها بعد التشتت والتشويش الذي اصابها، خصوصاً من قبل الماركسية السوفييتية. كما من قبل مدارس أخرى ومنها التروتسكية والشيوعية الأوروبية. وبالتالي تجاوز الصراعات القديمة لأن الظروف قد تجاوزتها، وفتح أفق تعددي ديمقراطي لكي يكون الحوار الجاد ممكناً.

كما أنه بحث يطول الواقع ذاته، لأن فعل الماركسية التغييري مرتبط بلا فكاك بوعيها للواقع القائم من أجل بلورة آليات تغييره، وتحديد البديل المعبر عن الطبقات الشعبية. وهو جهد فكري ضروري، دون أن نتجاهل أن إسهامات كثيرة قد أنجزت خلال العقود الماضية. خصوصاً في مجال تحليل النمط الرأسمالي، وطبيعة الاستقطاب على صعيد عالمي، وأزمات الرأسمالية وحدودها، وعن مسائل الفقر والتخلف والنهب والديون. والحروب الامبريالية. لكنه مازال قاصراً في مجال البحث في مشكلات التجارب الاشتراكية، وفي مجال البديل الممكن، كما هو قاصر على صعيد النظرية الماركسية ذاتها.